فانزعج بذلك أيما انزعاج، وأرسل إلى أنصاره يستشيرهم، فأشاروا عليه بالحرب. واستعدوا لها والتقوا بالجيوش التي حشدت له من حلب والشام وطرابلس وغيرها من الولايات السورية، على مقربة من بحيرة (الحولة)، ودارت هناك رحى معركة هائلة أبلى فيها ابنه (علي) ورجاله أحسن البلاء حتى هزموهم وألقى الكثيرون منهم أنفسهم في مياه البحيرة وأعاد سلطته إلى (صيدا) وتطلع بالتوسع جنوباً إلى (يافا) وغزة والخليل والقدس.. فاستولى عليها وجعل ابن عمه (كريم أيوب) والياً عليها.

التحالف مع مصر

ولما كان ظاهر يخشى غضب السلطات العليا في استنبول أخذ يتطلع إلى حليف يستعين به أثناء الشدة فتطلع إلى (مصر) أول ما تطلع.. ثم حسن علاقاته مع (كاترينا) ملكة روسيا التي أخذت تدعمه بالسلاح والعتاد والأسطول.

الحملة المصرية على الشام

أعد (علي بك) حملة على الديار الشامية تعدادها عشرة آلاف رجل بقيادة مملوكه (محمد بك) ليطرد (عثمان باشا) من الشام.

وأردفه ظاهر العمر بثلاثة آلاف من عساكره أيضاً وسار الجند إلى أن عسكروا خارج المدينة، ثم جرت المعركة في سهل (داريا) وهزم جيش (عثمان) باشا وارتد إلى حمص.

لكن محمد بك رجع فجأة بجيشه إلى مصر دون معرفة الأسباب، وعادت عساكر ظاهر إلى بلادها وعاد عثمان باشا إلى دمشق ليتآمر من جديد على ظاهر ولكنه عاد فغلبهم على صيدا بمساعدة المراكب الروسية التي كانت تمد إليه يد العون من البحر.

الاستيلاء على بيروت

ولما كان النصر حليفه في المعارك السالفة أخذ يفكر بالاستيلاء على بيروت فأرسل إلى استنبول يطلب من الدولة أن تقره عليها فكتبت له بذلك في الوقت نفسه الذي كتبت فيه إلى خصومه تأمرهم بمقاومته، وعندما هاجمها (ظاهر) صمد فيها (أحمد الجزار) الذي كان قد وصل إلى بلاد الشام وأصبح والياً لبيروت من قبل الأمير (يوسف شهاب) ورد ظاهر عنها.